الفكر الاقتصادي عند المدرسة التاريخية الألمانية (المدرسة التاريخية)

أولا :تعريف ونشأة المدرسة التاريخية

المدرسة التاريخية الألمانية هي مدرسة ذو فكر تاريخي، واقتصادي،(**التاريخ هو مفتاح المعرفة الاقتصادية**)، وهي في الحقيقة مدرسة قومية بامتياز، وروادها، ورموزها جميعهم من الألمان، وبدأت هذه المدرسة بالتشكل في أربعينيات القرن التاسع عشر في الفترة 1843-1853، وبالضبط مع بداية كتابات " **فريدريك ليست(1846 –1789)** " **Friedrich List** ، و " **ويلهلم روشر(1894 –1817)** " **Wilhelm Roscher** ، وبلغت أوجها بوصفها تيار فكري هام بعد 1870،وكان للمدرسة تأثير قوي ليس فقط في ألمانيا؛ بل أيضا في بلدان أخرى مرتبطة بالمدار الاقتصادي مثل أستراليا، المجر، سويسرا، شاملا أيضا الولايات المتحدة، والمملكة المتحدة.

رواد هذه المدرسة مثلهم مثل الاشتراكيين وجهوا نقدا قاسيا للمدرسة الكلاسيكية، وذلك للاختلاف الكبير بينهما في وجهات النظر سواء على المستوى القريب، أو على المستوى البعيد.

ويقسم البعض تاريخ تطور هذه المدرسة التي لم تعش طويلا إلى ثلاثة أجيال:

- **الشيوخ (روشر وكنيس و هيلدربراند).**
- **الشباب (بزعامة شمولر).**
- **اليافعين (بزعامة سومبارات، وعضوية عالم الاجتماع الشهير ماكس فيبر).**

ويبقى الجد الأكبر "**فريداك لست**"، الذي سنتحدث عنه فيما بعد.

ثانيا: الملامح العامة لمنهج المدرسة التاريخية

عموما تتمثل أهم المناهج التي تعتمد عليها المدرسة التاريخية فيما يلي:

أ- **المنهج التطوري**

استخدمت المدرسة منظورا تطوريا ديناميكيا لدراسة المجتمعات، وركزت على التراكم التنموي، وتماشيا مع النظرية الداروينية في علم الأحياء فإن النظام الاجتماعي يولد، ويتطور، وينمو، وأخيرا يتضاءل ثم يموت .

المجتمع دائم التغير، ولذلك فإن ما يلائم (من المبادئ الاقتصادية) في وقت معين قد لا يلائم بلدا آخر، وقد لا يلائم نفس البلد في وقت آخر. هذا المنهج النسبي كان مفيدا خاصة في الهجوم على الاقتصاد الكلاسيكي على أنه لا يلائم ألمانيا.

ب- **المنهج التدخلي**

هـذه المدرسـة كانـت قوميـة، بينمـا الاقتصـاد الكلاسـيكي كـان فرديـا وعالميا، وإذا كـان النظـام الاجتمـاعي هو مركز الدراسة، وإذا كـان هـو القـوة الديناميكيـة المحركـة فـإن المجتمـع والدولـة ، ولـيس الفـرد، يجب أن يحتل الصدارة. في ألمانيا كانت الدولة هي التي ترعى الصناعة، والنقل، والنمو الاقتصادي، وفي عملية الدفاع عن وحدة الاقتصاد كان من السهل تطوير الحماس القومي، وإعلاء شأن الدولة.

هذه المدرسة أعطت أهمية عظيمة لضرورة التدخل الحكومي في الشؤون الاقتصادية، وأكدت على أن الجماعة لها مصالح خاصة تختلف عن مصالح الفرد.

ج- المنهج الاستقرائي التاريخي

اقتصـاديو هـذه المدرسـة ركـزوا علـى أهميـة دراسـة الاقتصـاد تاريخيـا كجزء من كل. ولأن الظـواهر الاقتصـادية، والظـواهر الاجتماعيـة الأخـرى متشابكة فإن الاقتصاد السياسي لا يمكن دراسته إلا مع الفروع الأخرى للعلوم الاجتماعية.

هذه المدرسة انتقدت التجريد، الاستنتاج، التحليل الساكن، غير الحقيقي، النوعية غير التاريخية لمنهجية المدرسة الكلاسيكية والحرية. هـذه المدرسة قدمت دراسات استقرائية مكثفة مستخدمة المواد، والمصادر الأولية، وكـذلك دراسـة المؤسسـات الاجتماعيـة.

هـذه المدرسـة تـدعي أن الطريقـة التاريخية مكنتهـا مـن دراسـة جميع القـوى حـول الظـاهرة الاقتصـادية، وجميـع أوجـه السـلوك الاقتصـادي، ولـيس فقـط منطقهـا الاقتصـادي، بـل أن بعـض اقتصـاديي هـذه المدرسـة يرفضـون تقريبـا أي شـكل مـن أشـكال التنظيـر الاقتصادي، فقـد أنكـروا وجـود أي قـانون اقتصـادي صـحيح، أو حقيقـي، والاسـتثناء الوحيـد هـو أنهـم يعتقـدون أن نمـاذج، أو مسـارات التطـور مميـزة تاريخيا عن بعضها، وأن هذا يمكن تعميمه تحت " **قانون التطور**."

د- المنهج الإصلاحي

لم تدع المدرسة التاريخية إلى انتفاضة على الواقع، ولم تبشر بتغيير قادم إلى الأفضل بشكل حتمي، بل طالبت بأن تقوم الدولة ، من خلال " مؤسساتها الحكيمة" على حد تعبير "روشر" بالعمل على الإصلاح بصورة مستمرة، فالحاجة إلى الإصلاح دائمة، والتغيير الأمثل هو التغيير الأبوي البطيء المتدرج، والمدروس، أما الثورة فهي كارثة مهما كان الواقع صعبا، ومن الواضح أيضا أن هذا المنهج كان مناسبا جدا للطبقة الحاكمة في ألمانيا، ولأثريائها.

ثالثا: رواد المدرسة التاريخية

وعلى سبيل المثال لا الحصر، نستعرض الآن أبرز الأفكار لبعض رواد هذه المدرسة، وذلك كما يلي:

- "**جورج فريدريك ليست(1846 –1789)** "**George Friedrich List** ، اقتصادي ألماني، وكان أبا للمدرسة التاريخية الألمانية، وقد نادى بالتجارة الحرة داخل المانيا، لكنه دعا إلى الحماية من خلال تعرفة جمركية مرتفعة، ضد المستوردين من السلع المصنعة ، وذلك لحماية الصناعات المحلية الناشئة ، وإن الفكرة التي تؤيد الحماية الجمركية عرفت فيما بعد بالصناعة الناشئة.

"ليست" كان يرى أن الأمة يجب أن تنمي طاقاتها الإنتاجية قبل أن تواجه المنافسة الدولية، وهذه الطاقة الإنتاجية تكمن قبل كل شيء في الصناعة التحويلية، وليس في استخراج ما تقدمه الطبيعة. و كان "فريدريك ليست" مقتنعا كل الاقتناع بأن ذات الأفكار الاقتصادية ليست صالحة دائما لكل البلدان، ولا في كل الأزمنة، وذلك لاختلاف الخصائص والمميزات، سواء على المستوى الزماني، أو على المستوى المكاني.

ولم يكن " لست" من أنصار الاقتصاد الذي ينطلق من الفرد، ولم يكن كذلك من أنصار الاقتصاد ذي الصفة العالمية، بل كان يسعى وراء علم اقتصاد ينطلق من الوطن، فالفرد يسعى لتحقيق مصلحته الخاصة، أما الدولة فتعمل على تحقيق الرفاه لكل مواطنيها.

والمجتمع من وجهة نظر " لست" يمر بمراحل من التطور، تبدأ بالمرحلة الرعوية فالزراعية، فالزراعية الصناعية، ثم أخيرا المرحلة الزراعية الصناعية التجارية، والدولة هي المسؤولة عن تأمين شروط الانتقال من مرحلة إلى مرحلة أرقى .

- **ويلهلم جورج فريدريش روشر –1817)** " **Wilhelm Georg Friedrich Roscher**

(1894، كان اقتصاديا ألمانيا، له العديد من المؤلفات ، من أهمها "**نظام الاقتصاد الوطني**"، و "**تخطيط لإقامة الدولة وفق المنهج التاريخي**"، وتتمثل أهم أفكاره بشكل عام فيما يلي:

– الهدف من الاقتصاد هو اكتشاف ما اكتشفته الدول، وفكرت فيه، ورغبت فيه في مجال الاقتصاد، بالإضافة إلى ذلك، من المهم أيضا فهم ما حاولوا تحقيقه ولماذا (أو لم لا) حققوه؟

- المجتمع ليس فقط مجموعة من المواطنين على قيد الحياة الآن، ولكن أيضا مفكري الماضي، لذلك لفهم اقتصاد بلد ما، لا يكفي أن نلاحظ حقائق الحاضر فقط.

- لا توجد مؤسسة اقتصادية جيدة، أو سيئة تماما، على العكس من ذلك، كل واحد منهم قام بوظيفة في الوقت الذي ظهر فيه، مهمتنا هي محاولة فهم ما كانت عليه، ولماذا لم تعد قادرة على تحقيق ذلك؟

- يجب علينا دراسة الاقتصاد لفهم العلاقة بين المجتمع، وتنظيمه، وبهذه الطريقة، يمكننا مساعدة البلدان خلال الفترات المختلفة اللازمة لتطوير أقصى إمكاناتها الاقتصادية.

بهذه الطريقة، يتم تأسيس مهمة الاقتصاديين كوكلاء اجتماعيين للتغيير .

- **ج –ماكسيميليان كارل إميل فيبر (1864– 1920) Weber Emil Karl Maximilian** ،

كان عالم اجتماع، ومؤرخ ، واقتصادي سياسي ألماني، ويُعتبر من بين أهم المنظرين لتطور المجتمع الغربي الحديث.

يرى" فيبر" أن البيروقراطية هي البناء المجتمعي المتسلسل الذي عن طريقة يتم إدارة التنظيمات الكبيرة بطريقة صحيحة، متسلسلة، وبكفاءة وفاعلية.

كما كان يرى " فيبر " أن المعتقدات الدينية هي التي تؤثر في العامل الاقتصادي، وليس العكس كما يرى "كارل ماركس" وغيره، وهذا ما حاول توضيحه في كتابه الموسوم ب "الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية " ، إذ أكد أن العامل الأساسي الذي أدى إلى نشوء النظام الرأسمالي هو بروز الأخلاق البروتستانتية المسيحية في أوروبا.

وكان " فيبر" يؤكد كثيرا على أن الدولة تتميز بالقوة والعنف، وتمارس ما يسمى بمشروعية العنف، ويعني هذا أن الفرد ليس له الحق في ممارسة العنف، مهما كانت قيمته الاجتماعية، ومكانته الوظيفية في المجتمع، فالدولة هي المؤسسة الوحيدة التي لها الحق في ممارسة العنف ، والقوة باسم القانون، والتشريع، والدستور، ويكون العنف المبرر هنا بالسجن ، أو المراقبة، أو معاقبة المجرم، وإصدار اللوائح القانونية التي تجرم الفعل الإجرامي الذي قام به الفاعل الاجتماعي .

رابعا: **الانتقادات الموجهة إلى المدرسة التاريخية**

هناك العديد من الانتقادات التي وجهت إلى المدرسة التاريخية الألمانية، ومن بين هذه الانتقادات ما يلي:

- المدرسة التاريخية الألمانية مدرسة قومية كما ذكرنا سابقا، وهذه القومية قد تجاوزت نفسها كثيرا، بحيث تطورت إلى عسكرية هائجة قادت ألمانيا إلى حربين عالميتين، دفع المجتمع الدولي بسببهما الثمن غاليا.

- بعض مفكري المدرسة التاريخية الألمانية خدموا أنفسهم، بإقامة علاقات وطيدة مع المسؤولين الحكوميين، وحصلوا على مواقع راقية في الدولة، وذلك بسبب مواقفهم التي تخدم الدولة قبل الفرد، مما انعكس سلبا على المسار الاقتصادي، والتنموي في المجتمع .

- بالتدقيق الجيد لأفكار هذه المدرسة بشكل عام ، نلاحظ بأنها أقرب إلى اشتراكية ماركس ،و التي ذكرنا سابقا أهم عيوبها، والانتقادات الموجهة إليها.

- تفسير الوقائع الاقتصادية بخلفية تاريخية بحتة، منهج أثبت فشله وعجزه، لأن هذه الوقائع كما دل على ذلك المختصون في المجال الاقتصادي يجب أن تفسر وفق جملة من المعايير، والمناهج، التي تتكامل فيما بينها لتصل إلى النتيجة المرجوة.

- إن تدخل الدولة في الشؤون الاقتصادية بالشكل الذي يدعو إليه مفكرو هذه المدرسة، يعتبر مبدأ خاطئا كما دلت على ذلك التجارب والأحداث، حيث أن هذا التدخل كما هو معلوم تترتب عنه العديد من الآثار السلبية سواء على مستوى الاقتصاد الجزئي، أو على مستوى الاقتصاد الكلي، لذلك يبقى تدخل الدولة عاملا مهما، ومحوريا في المجتمع، ولكن وفق الدور المناسب، الذي يجب أن تقوم به الدولة في هذا الشأن .

وبناء على ما سبق يمكن القول بأن المدرسة التاريخية الألمانية هي مدرسة قومية بكل ما تحمل الكلمة من معنى، بنت أفكارها على الاعتقاد بأن التاريخ هو العنصر الأساسي في دراسة العملية الاقتصادية، ولا شك بأن هذه القومية، وهذا الاعتقاد هما من الأسباب الرئيسة التي أدت إلى القضاء على هذه المدرسة مبكرا، مقارنة بمختلف المدارس البارزة في تاريخ الفكر الاقتصادي.